الماركسية والاتحاد السوفييتي في مرآة الصهيونية

فيصل دراج

تسعى الصهيونية لاثبات انها ليست ايديولوجية رجعية عرقية مرتبطة بالامبريالية والرجعية العالميه وانما هي تعبير سياسي عن حركة تحرر قومي (للامة) اليهودية ، وانها ايضا تعبير فكري لشعب صاحب تراث ثقافي وحضاري عريض في التاريخ، انطلاقا من هذا المنطق تحاول الايديولوجية الصهيونية ان تنسج جملة حوارات مع كل التيارات الفكرية الراهنة ، مع الفكر الكاثوليكي والماركسي والوجودي ، واذا كان هذا الحوار (مثمرا) في بعض المجالات ، فانه عقيم بل مستحيل مع الفكر الماركسي . ومع صعوبة هذه المهمة فان الصهيونية تحاول بشتى السبل اما ان تقيم جسرا بينها وبين الفكر الماركسي او ان تظهر لاعلمية وعرقية ولاسامية الفكر الماركسي .

من خلال حوارها الاصم بل المستحيل مع الفكر الماركسي ، تحاول الصهيونية الوصول الى نتيجتين اولاهما صحة وشرعية وعلمية الفكر الصهيوني ، ثانيهما الوصول الى نتائج سياسية مباشرة تستهدف جذب اليهود المستمر الى الحركة الصهيونية وبالتالي تسهيل وتبرير الهجرة اليهودية الى اسرائيل . ولا شك ان الهجوم الصهيوني يستهدف اولا الاتحاد السوفياتي او بالاحرى يهود الاتحاد السوفياتي ، لذلك تصور الدعاية الصهيونية الاتحاد السوفياتي بأنه بلد يخنق الانسان اليهودي ويحيله الى مجرد فأر في قفص(١) .

ان موقف الصهيونية من الفكر الاشتراكي والعالم الاشتراكي لا مفاجآت فيه ، فبين الفكر الماركسي واطروحات هرتزل وماكس نورداو هوة لا يمكن تجاوزها ابدا ، فهما قطبان لا يلتقيان أبدا ، فاذا كانت الصهيونية تعتمد على مفهوم لا طبقي مرتبط سياسيا بالاحتكارات العالمية ، وعلى رؤية دينية عرقية لا تاريخية ، حيث ترى في اليهود شعبا متجانسا ثابتا لا مكان للصراع الطبقي فيه ، فان الماركسية تنطلق من رؤيا طبقية تاريخية مادية واممية . ان في الماركسية نفيا كاملا للصهيونية ، فالماركسية لا ترى في الدين اساسا لامة ، ولا تنظر الى المجتمع كوحدة متجانسة لا تغير فيها ، بل بالعكس ترى فيه مجموعة طبقات متصارعة متغيرة تاريخيا ، ولا تؤمن بأسطورة شعب نقي مختار ، بل ترى في الانسان مردودا اجتماعيا ، والماركسية أممية تناهض كل أشكال الشوفينية والتعصب.

بسبب هذا التضاد النظري وبسبب الدور الكبير الذي تلعبه الحركات السياسية المؤمنة بالماركسية منهجا تحاول الصهيونية تأويل فكر ماركس من جديد . والان لنرى كيف عالج ماركس ومن بعده لينين وستالين المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية .

حدد ماركس موقفه من المشكلة اليهودية في مقالته «المسالة اليهودية» التي ظهرت في مارس عام ١٨٤٤ ، كان عمر ماركس آنذاك ستة وعشرين عاما ، وقد جاءت المقالة